فلسفة العودة إلى الأصول وأبعادها الحضارية عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

د/ محمد زرمان
أستاذ الفكر الإسلامي والدراسات القرآنية معهد اللغة العربية وآدابها - جامعة باتنة

تشكل قضية الاحتكام إلى الكتاب والسنة أو العودة إلى الأصول، الإطار النظري الهام الذي استندت إليه جميع الدعوات التجديدية، والحركات الاصلاحية في العالم الإسلامي منذ ابن تيمية (ت 728 هـ/ 1327 م)، وابن قيم الجوزية(ت751هـ/1350م)، مرورا بمحمد بن عبد الوهاب(ت 1206هـ/1792م)، ومحمد بن علي الشوكاني (ت 1250 هـ/ 1834 م)، وشهاب الدين محمود الألوسي (ت 1270 هـ/1853 م) وانتهاء بجمال الدين الأفغاني (ت1314هـ/1896م)، ومحمد عبده (ت 1323 هـ/ 1905 م)، ومحمد رشيد رضا (ت 1354 هـ/ 1935 م) وغيرهم من أقطاب الإصلاح في العالم الإسلامي .

فقد كان القاسم المشترك الذي ألف بين دعواتهم جميعا إلحاحهم الشديد على ضرورة الرجوع إلى الكتاب والسنة والاحتكام إليهما، والاستضاءة بهديهما، في مجالات العقيدة والفقه والتربية ومختلف جوانب الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية في ضوء منهج إسلامي أصيل يؤمن بالتقدم وبناء الحضارة .

ولم تكن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي تولت قيادة حركة التجديد الإسلامي في الجزائر، والتي تأسست غداة احتفال الاستعمار الفرنسي بمرور قرن كامل على احتلال الجزائر عام 1931 لتشذ عن هذا الإجماع. فقد كان الإسلام هو الأساس الذي تبناه علماؤها ليبنوا عليه نهضة الجزائر الحديثة، ويقيموا عليه أركان ودعائم البناء الجديد بإعادة سلطان الدين على الأنفس، وإعادة صياغتها وفقا لتعاليمه وتوجيهاته في الحياة، في إطار المواجهة الحضارية مع الإستعمار الفرنسي والمقاومة الجادة للانحرافات العقيدية

والسلوكية التي كانت متفشية في المجتمع بسبب تأثير الطرق الصوفية المنحرفة .

ويوضح الشيخ عبد الحميد بن باديس (ت 1359 هـ/ 1940م) رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أن الإسلام بمصدريه الكتاب والسنة - واللذين عرفا مرحلة التطبيق العملي والتنزيل الفعلي على أرض الواقع في زمن النبوة والخلافة الراشدة - هو الركيزة الهامة التي قامت عليها فلسفة التجديد الإسلامي في الجزائر فيقول: «وأن الإسلام إنما هو كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ وما كان عليه سلفها من أهل القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية على لسان الصادق المصدوق، فصمدنا ندعوا الأمة إلى الرجوع إلى هذه الأصول، وطرح كل ما يخالفها من قول وعمل واعتقاد». [1]

ولقد سارت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على هذا النهج، مؤمنة إيمانا لا حد له بأن التجديد يجب أن يكون بالرجوع نظريا وعمليا إلى الإسلام، إلى المقولات التي ثبتت صلاحيتها تاريخيا، وارتضاها قلب المسلم وعقله. كما أدركت أن العودة إلى الإسلام واستلهام مبادئه وقيمه يعتبر أولى الخطوات على طريق البناء الحضاري. لذلك، دعت بإلحاح شديد إلى تجاوز كل ما يعوق المسلمين عن الاتصال الحي بالقرآن والسنة : « لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه، والعذاب المنوع الذي نذوقه ونقاسيه، إلا بالرجوع إلى القرآن : إلى علمه وهديه، وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه، والتفقه فيه وفي السنة النبوية شرحه وبيانه». [2]

وإن من يستقرئ كتابات الشيخ محمد البشير الإبراهيمي [3] (ت1385هـ/ 1965 م) أيضا يلحظ الدعوة الملحة إلى ضرورة الرجوع إلى الكتاب والسنة، وسيرة السلف الصالح بشكل لافت للنظر، مما يدل على إيمانه العميق بأهمية الإطار المرجعي الإسلامي في عملية التجديد الحضاري، وكونه المحور الأساس الذي تبدأ منه النهضة وتعود إليه : «الكتاب والسنة منهما المبدأ وإليهما المرجع ». [4]

فالعلماء المجددون الذين يهدفون إلى إحداث تغيير حضاري في المجتمع، والانتقال به من حالة التخلف والسقوط إلى حالة الرخاء والازدهار يجب أن ينطلقوا من الإطار المرجعي للأمة، والذي يعبر بصدق عن هويتها، وهم - في نظر الإبراهيمي - أولئك الذين : « يصدرون في أعمالهم وأحكامهم عن الكتاب والسنة، فيصدرون عن الدليل الذي لا يضل ويستندون إلى الحجة التي لاتدحض ». [5]

والقرآن الكريم هو أصل الأصول، وحجر الزاوية الذي بني عليه الإسلام، وهو رسالة اللّه إلى الإنسانية كافة، والمصدر الأساس للشريعة. لذلك كان هو الركن الركين الذي استندت إليه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في دعوتها التجديدية، وكان اهتمامها به كبيراً، حتى تبنى النهضة الجزائرية على أساس متين : « وكيف لا تهتم بالقرآن وهو سلاحها الذي به تناضل، وسيفها الذي به تصول، وعدتها في الشدة، وعلى الدعوة إليه بنت مبدأها الإصلاحي، وفي الدعوة إليه لقيت الأذى ... ». [6]

وكانت السنة النبوية الصحيحة هي الركيزة الأخرى التي استندت إليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في دعوتها التجديدية، باعتبارها المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي. وأسست لذلك صحيفة أسمتها (السنة النبوية المحمدية) لنشر الهدي المحمدي، ودفع الناس إلى التأسي بسيرة النبي الكريم والتخلق بأخلاقه، والتمسك بشمائله. يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس موضحا ذلك : «فأخذنا على أنفسنا دعوة الناس إلى السنة النبوية المحمدية، وتخصيصها بالتقدم والأحجية، فكانت دعوتنا - علم اللّه - من أول يوم إليها، والحث على التمسك والرجوع إليها... فالأئمة كلهم يرجعون إليها، والمذاهب كلها تنطوي تحت لوائها وتستنير بضوئها وفيها وحدها ما يرفع أخلاقنا من وهدة الانحطاط،ويطهرعقيدتنامن الزيغ والفساد،ويبعث عقولنا على النظر والتفكير ... ويحيي منا النفوس والهمم والعزائم، ويرفع عنا الإصر والأغلال ويصيرنا - حقا-خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر،وتؤمن باللّه ». [7]

وجمعية العلماء في دعوتها إلى ضرورة العودة إلى الأصول، والاحتكام إلى الكتاب والسنة، لم تكن متأثرة بأية حركة من الحركات التجديدية الإسلامية - كما قد يتبادر إلى الذهن - بل كان ذلك منها استجابة لأمر اللّه ورسوله الذي يلزم المسلمين باتباع القرآن والسنة وتطبيق نصوصهما الصريحة : «**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى اللّه والرسول إن كنتم تؤمنون باللّه واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا**». (8)

وقوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن : (كيف تقضي إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بكتاب اللّه. قال : فإن لم تجد في كتاب اللّه ؟ قال : فبسنة رسول اللّه ﷺ. قال : فإن لم تجد في سنة رسول اللّه ﷺ ولا في كتاب اللّه ؟ قال أجتهد رأيي ولا آلو. فضرب رسول اللّه ﷺ صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول اللّه ﷺ وسلم لما يرضي رسول اللّه ﷺ . (9)

والعودة إلى الأصول تعني في واقع الأمر إعادة الاعتبار إلى القيم والمعاني الإسلامية الأصيلة، وتنقيتها من الشوائب التي لحقت بها على مر العصور بسبب أهواء البشر، حتى يعود الدين إلى نقائه وصفائه كما نزل أول مرة .

كما تعني أيضا، محاولة فهم وتفسير مفاهيم الإسلام في إطار العصر ومعطياته، لإعادة تنزيلها على أرض الواقع، أو بمعنى آخر: «تفجير طاقات النموذج الأصلي وإظهار ما يحتويه من إمكانات وتنوعات وطاقات على التوظيف المتعدد في إطار استمرار السياق التاريخي والحضاري العام الذي يمثله أو يندرج فيه». (10)

وجمعية العلماء عندما تلح على ضرورة الاحتكام إلى الكتاب والسنة، والعودة إلى الأصول إنما تهدف إلى ربط المسلمين بالكتاب والسنة : عقيدةً وفكراً وسلوكاً، وإعادة الوظيفة التغييرية لهذه الأصول في الواقع الإسلامي من خلال إبراز مجموعة من الأبعاد الهامة والتي نلخص أهمها فيما يلي :

أولاً - لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها:

ان إحداث التغيير وإعادة البناء الحضاري للمجتمع الإسلامي الحديث تتم ضمن البنية التي تشكلت خلالها التجربة التأسيسية للمجتمع الإسلامي الأول، ومن ثم يكون الإسلام هو نقطة الانطلاق في أي تغيير اجتماعي .

وجمعية العلماء تؤمن بهذا القانون الإجتماعي في عملية التجديد الحضاري، وتعتقد أن تجديد المجتمع الإسلامي لا يمكن أن يتم إلا إذا ترسم خطى الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين في بناء المجتمع الإسلامي النموذجي الأول، وهي بذلك تتبنى مقولة الإمام مالك بن أنس : « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ». وهو ما يؤكده الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في قوله : « والقرآن هو الذي صلح عليه أول هذه الأمة وهو الذي لا يصلح آخرها إلا عليه ... فإذا كانت الأمة شاعرة بسوء حالها، جادة في إصلاحه فما عليها إلا أن تعود إلى كتاب ربها فتحكمه في نفسها، وتحكم به، وتسير على ضوئه، وتعمل بمبادئه وأحكامه والله يؤيدها ويأخذ بناصرها، وهو على كل شيء قدير ». [11]

كما يؤكد الشيخ عبد الحميد بن باديس أيضاً أن القرآن الكريم الذي خرج ذلك الجيل الفريد الذي كون المجتمع الإسلامي الأول، ووضع دعائم الحضارة الإسلامية الشامخة لا يعجزه أن يفعل ذلك مرة أخرى إذا تعامل معه المسلمون اليوم كما تعامل معه السلف الصالح فيقول : « وأن القرآن الذي كون رجال السلف لا يكثر عليه أن يكون رجالا في الخلف أو أحسن فهمه وتدبره وحملت الأنفس على منهاجه ». [12]

ويذهب المفكر الإسلامي الجزائري مالك بن نبي - في دراساته لمشكلات الحضارة - إلى تأكيد هذا القانون، وعده سنة ثابتة من السنن الاجتماعية، حينما أشار إلى أن إيديولوجية التغيير وإعادة بناء المجتمع الإسلامي الحديث، هي إيديولوجية التغيير والبناء نفسها التي انطلق منها المجتمع العربي في صدر الإسلام، لأن هناك للواقع الإسلامي : « أساساً ثقافياً عربياً إسلامياً لايمكن

إعادة بناء حضارتنا على سواه »،[13] ولأن : « نهضة مجتمع ما تتم في نفس الظروف العامة التي تم فيها ميلاده، كذلك يخضع بناؤه وإعادة هذا البناء لنفس القانون ». [14]

ومن المؤكد أن جمعية العلماء في دعوتها إلى العودة إلى الأصول، لا تدعو إلى عودة سياسية وإيديولوجية لصياغة المجتمع الإسلامي الحديث وفق صورة مثالية مقتطعة من المرحلة النموذجية، أو بمعنى آخر لا تريد إعادة إنتاج حقبة العصر الذهبي بكامل مواصفاتها. لأن هذه النظرة تناقض سنة التطور في الحياة، وتصطدم مع القوانين الإجتماعية التي تحكم المجتمعات البشرية المتغيرة باستمرار، وتناقض من جانب آخر أيضا أصلا من أصول التشريع الإسلامي الذي هو الإجتهاد والتجديد، والذي تتم بموجبه الإستجابة للظروف التي تجد في حياة الإنسان مما يضمن للشريعة حداً أقصى من المرونة يؤكد صلاحيتها لكل زمان ومكان .

بل كانت تدعو إلى البحث في ظاهرة ميلاد المجتمع النوذجي، لاكتشاف القانون الذي يحكم هذه الظاهرة، حتى تتم إعادة تأسيس وبناء المجتمع الإسلامي الحديث وفق القوانين نفسها التي تحكمت في ظاهرة ميلاده : « يعتقد المسلمون أن سلفهم كانوا أكمل إيمانا من خلفهم وهذا صحيح ولكنهم لا يبحثون عن علة كمال الإيمان في السلف، حتى لكأنهم يعتقدون أن ذلك بوضع إلهي وتخصيص رباني لابد للكسب فيه، وهذا خطأ فاحش، وجهل فاضح ». [15]

فالشيخ محمد البشير الإبراهيمي ينفي - في هذا النص - ظاهرة الإعجاز عن المجتمع الإسلامي الأول، ويعتقد أن وجوده خاضع لجملة من القوانين والسنن التي تلزم المسلم أن يكتشفها لتتضح له معالمها، وتكون دليله في عملية التجديد الحضاري : « ومادام الكلام في الإيمان فهاته وانظر كيف فهمه السلف، ومن أي معين استقوا فهمه، ومن أي أفق استجلوا حقائقه، ثم انظر كيف فهمه الخلف، ومن أين سقطت عليهم هذه الفهوم السخيفة، ثم ارجع كل معلول إلى علته بلا إجهاد للذهن ولا إنضاء للقريحة ». [16]

ثانياً - تجاوز القراءات المذهبية للنص:

ومن الأبعاد الأساسية التي تكتسيها فلسفة العودة إلى الأصول عند جمعية العلماء أيضاً تجاوز القراءات المذهبية التي تأسر النص ضمن منظورها، ولا تعترف بوجهات النظر الأخرى وطرح الاجتهادات البشرية التي تراكمت عبر العصور، وأصبحت لها الصدارة في كل المناقشات والحوارات، واكتست طابع القداسة حتى كادت تحل محل الكتاب والسنة.

فقد ابتلي الفكر الإسلامي - بعد عصوره الزاهرة - بعدة آفات، أبعدت المسلمين عن مصادر الهداية، وألهتهم عنها، وشغلت أذهانهم بما عجت به الساحة الفكرية الإسلامية من مذاهب وتيارات واتجاهات، استأثرت بالاهتمام، وعكف المسلمون عليها، حتى انقطعت صلاتهم بأصول دينهم الأولى. وغلبت عليهم النظرة الأحادية المتعصبة التي تسجن الفكر في مذهب أو تيار بعينه، لا ترى العالم إلا من خلاله. وتجنوا في تأويل النصوص المعصومة لتساير اتجاهاتهم الكلامية أو الفقهية أو الصوفية، أو السياسية مما أدى إلى انحراف نظرتهم إلى الحياة وانسحب ذلك على معظم العلوم الإسلامية، كما انعكس على مسارهم الحضاري الذي ظل يسجل علامات الضعف والهبوط إلى أن وصل إلى ما كان عليه قبيل النهضة الحديثة .

وقد أدركت جمعية العلماء أن هذه النظرة الأحادية الضيقة في التعامل مع الأصول هي التي كانت تعوق العقل المسلم عن التفاعل الصحيح معها، واستكشاف مذخراتها، ووضع اليد على مفاتيحها الكبرى للانتفاع بها في بناء الأمة، وتمكينها من الاضطلاع برسالتها الحضارية. من هنا جاءت دعوتها الحارة إلى تجاوز هذه القراءات المذهبية للأصول والاتصال المباشر والحي بمصادر الهداية. يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، مؤكدا على أهمية هذا البعد الحضاري ناعيا على المسلمين المتأخرين سوء تعاملهم مع القرآن والسنة : «بل فهموا الدين وأفهموه على أنه صور مجردة خالية من الحكمة، وحكموا فيه الآراء المتعاكسة والأنظار المتباينة من مشايخهم، حتى انتهى بهم الأمر إلى

اطراح النصوص القطعية إلى كلام المشائخ، وإلى سد باب الفكر بإقليد التقليد وتناول حقائق الدين بالنظر الخاطئ والفهم البعيد، والفكر كالعقل نعمة من نعم الله على هذا الصنف البشري، فالذي يعطله أو يحجر عليه جان مجرم، كالذي يعطل نعمة العقل، ولعمري إن سد باب الاجتهاد لأعظم نكبة أصابت الفكر الإسلامي». [17]

ومن أبرز مظاهر هذه النظرة الأحادية الحدية، الاسترسال وراء القضايا والمسائل الفرعية في الاعتقادات والفقهيات، على حساب النظرة الكلية لنصوص الوحي، ومقاصد الشريعة، وأهداف الإسلام العامة، وإعطاء الجزئيات الثانوية شأناً كبيراً أدى إلى اعتبار الخلاف فيها نزاعاً وفرقة. وهذا التمسك بالجزئيات والفرعيات، وإغفال الكليات والمبادئ العامة - وبخاصة في العصور المتأخرة - هو الذي جر إلى القطيعة مع الكتاب والسنة.

وقد وصف الشيخ عبد الحميد بن باديس هذا الخلل، وبين أن قراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر، جافة بلا حكمة، هو الذي جعل القرآن مهجوراً بين المسلمين، وذلك في تفسيره لقوله تعالى: «**وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا**». [18] حيث يقول: «بين القرآن أصول الأحكام، وأمهات مسائل الحلال والحرام، ووجوه النظر والاعتبار مع بيان حكم الأحكام وفوائدها في الصالح الخاص والعام، فهجرنا واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر، جافة بلا حكمة، محجبة وراء أسوار من الألفاظ المختصرة تفنى الأعمار قبل الوصول إليها... فترى الطالب يفني حصة كبيرة من عمره في العلوم الآلية دون أن يكون طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير كتفسير الجلالين مثلا». [19]

وهذا الإهتمام الكبير بالفرعيات هو الذي مهد السبيل لظهور المذاهب المختلفة، وغلو أصحابها في الانتصار لها هو الذي كرس ظاهرة التعصب المقيت للمذاهب، وقاد شيئاً فشيئاً إلى الانغلاق عليها وإحلالها محل الكتاب والسنة.

فقد أقيمت الجدران العالية حول كل مذهب، وحبس العلماء المتعصبون أنفسهم داخلها ومنعوا اجتيازها إلى غيرها، أو حتى النظر في القرآن الكريم

والسنة الشريفة. وانغلق أهل كل مذهب على مذهبهم، يستخرجون من فروعه فروعاً تعد من الجزئيات في مسائل الفقه والعقيدة ولكنهم يحيطونها بقدر كبير من الإهتمام الذي يسهم في توسيع فجوة الخلاف بينهم وبين أصحاب المذاهب الأخرى. وانصبت أبحاثهم حول التماس الأدلة من الكتاب والسنة لتأييد رأي إمامهم ومذهبهم، بدل اللجوء مباشرة إلى استخراج الأحكام من مصادرها الأصلية، وأصبح المذهب في اعتبارهم العملي هو الإسلام [20] : « ومن هنا بدأ إهمال الناس للكتاب الكريم وعلومه وإعراضهم عن السنة وفنونها، وقنعوا من العلم بنقل الأقوال والمذاهب وتقعيدها وتأصيلها والجدال عنها والتفريع عليها والتخريج منها في أحسن الأحوال ». [21]

وقد أدركت جمعية العلماء المضاعفات الخطيرة التي ترتبت عن هذه الظاهرة والآثار الوخيمة التي تركتها في مسار حركة الفكر الإسلامي عبر العصور. فهاجمت التعصب الأعمى للمذاهب، وسعت إلى تقريب المسلمين من الأصول الأولى لدينهم، وتجاوز الخلافات الفرعية التي تفتح باب الفرقة: «وقد طغت شرور العصبية للمذاهب الفقهية في جميع الأقطار الإسلامية، وكان لها أسوأ الأثر في تفريق كلمة المسلمين. وإن في وجه التاريخ الإسلامي منها لندوبا ». [22]

ورسم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي صورة حية لجانب واحد من جوانب هذا المرض العضال الذي أقعد العقل المسلم عن التفاعل الصحيح مع الأصول، وتحدث عن آثاره في علم التفسير فقال: «ومقلدة المذاهب يفسرون القرآن بقواعد مذاهبهم، ويحكمونها فيه، فإذا خالف نصه قاعدة من قواعدهم ردوه بالتأويل إليها. وهذا شر ما أصيب به هذا العلم، بل هو نوع من التعطيل وباب من التحريف والتبديل، لأنه-في حقيقة أمره - وضع لكلام اللّه في الدرجة الثانية من كلام المخلوق، وفي منزلة الفرع من أصله يرد إليه إذا خالفه ». [23]

وجمعية العلماء في دعوتها إلى تجاوز القراءات المذهبية لنصوص الوحي، لا تجرد التراث الحضاري الضخم الذي أبدعه العقل المسلم عبر العصور من

قيمته العلمية، بل تدعو إلى الاستفادة من هذا التراث، شريطة ألا نتعصب للرجال، ونقدس أقوالهم، ونفضلها على النصوص القطعية. وبعبارة أخرى، يجب ألا تشكل الاجتهادات البشرية الكلامية والفقهية والصوفية حاجزاً كثيفاً يحول بين المسلمين وبين الاتصال المباشر بالقرآن والسنة، لأن وجود هذه الواسطة يفقدهما القدرة على العطاء المتجدد، والإضافة المستمرة، بسبب حبسهما في سجن أقوال القدماء الذي يعطل فاعليتهما : « فالعودة إلى النص تعني فيما تعني التحرر من كل النصوص البشرية، والإقرار بعدم إلزاميتها وسحب القداسة عنها، دون أن يعني ذلك إسقاط أهميتها المعرفية ». (24)

ثالثاً - الدعوة إلى الإجتهاد والتجديد:

إن الاحتكام إلى الكتاب والسنة يفرض بالضرورة إحداث عملية إخصاب بين النص الشرعي والواقع المعيش، وهذا يستلزم بالضرورة أيضا تجاوز الاجتهادات الفقهية السابقة التي كانت وليدة بيئتها وعصرها. وهو بمعنى آخر، إعادة تنزيل الإسلام من جديد على واقع الناس بمعطياته وظروفه باكتشاف إجابات جديدة على التحديات المعاصرة عن طريق عملية الاجتهاد والتجديد .

من هنا حاربت جمعية العلماء كل مظاهر الرتابة والتكرار التي اتسمت بها الحياة الفكرية الإسلامية، ونبذت الجمود، ودعت إلى إطلاق العقل من قيود التقليد، ونقدت فكرة الإعلاء من شأن الاتباع، والتهوين - بل والتحذير - من الإبداع. وقد جر عليها ذلك عداء العلماء الجامدين الذين كانوا يهولون على الناس أمر الاجتهاد، ويعظمون من حرماته، ويحكمون غلق بابه، مكتفين بما ورثوه من القدماء، وهم الذين أسماهم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (أسراء المألوف وأحلاف الجمود) ووجه إليهم سهام نقده حين عاب عليهم حظرهم للإجتهاد، وتقليدهم الأعمى لمن سبقهم في كل صغيرة وكبيرة، وفي ذلك يقول : « ثم مالهم - سامحهم الله- يجمعون بين المتناقضات فيحجرون الاجتهاد على الأحياء والأموات إلا على طائفة معينة كانت في زمن معين وقد مضت ومضى زمانها وجف القلم بأقوالها. ويبنون على هذا أنه لم يبق من سبيل في علم الدين إلا التقليد ». (25)

ودعت - في المقابل - إلى فتح باب الاجتهاد، والاتصال المباشر بالقرآن والسنة لاستلهام الحلول لمشاكل الواقع وفقا لمقاصد الشريعة، دون الحاجة إلى الرجوع إلى أقوال القدماء إذا لم يكن فيها ما يستجيب لظروف العصر، ويتماشى مع تطوراته .

وقد حرص الشيخ عبد الحميد بن باديس أن يجسد هذه الدعوة في دروسه التي كان يلقيها على طلبته، فكان يعمل باستمرار على وصلهم بالقرآن والسنة، واستلهام أدلة الأحكام الشرعية منهما، وتقريبها من أذهانهم، وتعويدهم على فهم الحكم مقرونا بدليله منهما، بدل سرد الأحكام الفقهية من كتب الفقهاء الجامدين مقطوعة من أصولها، وكان يهدف من وراء ذلك إلى تربيتهم على اللجوء المباشر إلى الأصول والاستغناء عن الوسائط الاجتهادية. وفي معرض نصحه وتوجيهه لأهل العلم الذين يتصدون للفتوى والإرشاد، يقول موضحا ذلك : «ومما ينبغي لأهل العلم أيضا إذا أفتوا أو أرشدوا أن يذكروا أدلة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم ليقربوا المسلمين إلى أصل دينهم، ويذيقوهم حلاوته ويعرفوهم منزلته ويجعلوه منهم دائماً على ذكر، وينيلوهم العلم والحكمة من قريب ويكون لفتواهم ومواعظهم رسوخ في القلب وأثر في النفس». (26)

وفي هذا الإطار أيضا، انصبت انتقادات جمعية العلماء للفقه الذي كان سائداً في ذلك الوقت، والذي كان - في نظرها - فقهاً جافاً، لا يبحث عن علل الأحكام، ولا يلتمس مقاصد الشريعة فيها، ولا يميز بين وجوه المصلحة والمفسدة لغلبة التقليد عليه، ولا يحاول أن يفهم الجزئيات في إطار الكليات، حتى غدا مجرد ألفاظ يتناقلها الفقهاء الجامدون، ويلقونها إلى العامة في شكل فتاوي مجردة من روح الشريعة السمحة، ومن روح العصر : «فقد كان الناس بهذا الوطن إلى ما يتصل بالنهضة لا يعرفون من العالم إلا رجلا منعزلا عن العالم. لا هم له إلا بما يتصل بمعيشته، وأكبر أمره بينهم أن يفتيهم في المسائل الجزئية التي لا تتجاوز واحدا كمسائل الصلاة والصوم، أو اثنين كأحكام النكاح

والطلاق، أو حياً وميتاً كموص ووصي ... فهو يفتي في الطلاق ولا يبحث عن أسباب الطلاق الفاشية، ويفتي في الايمان ولاينهى الناس عن الحلف ولا عن الحنث فيه بعد انعقاده، ويحرم الخمر والميسر ولا يبين للناس مضارهما ولايزجرهم عن تعاطيهما، وبالجملة فهو رجل انقطعت الصلة بينه وبين أهل زمنه».[27]

فدعت الجمعية إلى تجاوز هذه المظاهر السلبية، والتعود على استنباط أحكام الدين من القرآن والسنة مباشرة، ثم من عمل السلف وكتب العلماء المستقلين المستدلين الذين يربطون المسائل بأدلتها وبحكمة الشارع منها. وهذا هو الفقه الأكمل الذي يترك آثاره الايجابية في النفوس، ويربي الناس على الاستقامة في الدين عن وعي وبصيرة. يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي مشيراً إلى ذلك : «ولو أن فقهاءنا أخذوا الفقه من القرآن والسنة القولية والفعلية، ومن عمل السلف، أو من كتب العلماء المستقلين المستدلين التي تقرن المسائل بأدلتها، وتبين حكمة الشارع منها لكان فقههم أكمل، وآثاره الحسنة في نفوسهم أظهر، ولكانت سلطتهم على المستفتين من العامة أمتن وأنفذ ويدهم في تربيتهم وترويضهم على الاستقامة في الدين أعلى»، [28]

وقد استطاعت جمعية العلماء أن تخطو في هذا السبيل خطوات موفقة، تمثلت في تربيتها لجيل جديد من أبناء الجزائر الذين تخلصوا من العقلية التقليدية الجامدة التي كانت تكبل عقول آبائهم مما فتح أمامهم آفاقا واسعة من العلم كانت محجوبة عنهم، كما تمثلت في إصدارها لبعض الفتاوي الجريئة التي أثارت ضجة حولها، وكانت تعبيراً حياً وعميقاً عن صدقها في الدعوة إلى فتح باب الإجتهاد، وقدرتها على التفاعل المباشر مع نصوص الوحي من جديد .

ومن بين هذه الفتاوي، إصدارها لفتوى تكفير المتجنس. فقد أصدرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في سنوات الثلاثين فتوى تكفر فيها الجزائريين الذين تجنسوا بالجنسية الفرنسية [29] مستندة في ذلك إلى أن التجنس يقتضي من المتجنس الاحتكام إلى القوانين الفرنسية الوضعية في

جميع أحواله مما يترتب عنه رفض أحكام الشريعة الإسلامية وتخل عمدي عنها، وكل من رفض حكماً من أحكام اللّه فهو كافر، وقد نصت الفتوى أيضاً على أن المتجنس لا يتزوج المسلمة ولا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين .

ومنها أيضا الفتوى ببطلان الصلاة وراء إمام يعينه الحاكم العام الفرنسي بالجزائر باعتبار أن الشؤون الإسلامية كانت تسير من طرف الإدارة الإستعمارية. ونص الفتوى: «أن تولي الإمامة من حاكم مسيحي باطل، وأن طلب الإمامة من ذلك الحاكم قريبة فوق الباطل، وعليه فالصلاة وراء إمام معين من ذلك الحاكم باطلة، ومن ادعى خلاف هذا فهو يكذب بالقرآن». (30)

وقد استندت في هذه الفتوى على أن : « إمامة الصلاة استخلاف عن رسول اللّه ﷺ ، وإن مكانتها من الدين هي مكانة الصلاة نفسها ... ومن أصول الإسلام ومناهج تربيته الحكيمة أن الإمامة لا تطلب، وأن أمير المسلمين أو جماعة المسلمين هم الذين يختارون لها من يرتضون دينه وأمانته ». (31)

رابعاً - إعادة تشكيل العقل المسلم:

إن العودة إلى الأصول أو الاحتكام إلى الكتاب والسنة والاتصال المباشر بهما بفتح آفاقا واسعة للعقل المسلم الحديث ليمارس نشاطه الطبيعي، باحتكاكه المباشر بالنصوص المعصومة. وهذه نقلة نوعية في التفكير ترفع عن كاهل العقل الضغط الذي فرضته عليه التراكمات التراثية، وتخلصه من رواسب الأفكار الضالة، والاعتقادات الخاطئة والممارسات الشاذة المنافية لروح الإسلام، وتربطه بالنص القرآني، ليستلهم منه معان جديدة دون الرجوع إلى وساطات السابقين .

وقد صالت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في هذا المجال وجالت، وكانت لها فيه مواقف تاريخية مشهودة، حيث شكلت إعادة صياغة العقل عند الإنسان الجزائري، أو تكوين عقل مرتب متوازن قادر على التفكير السليم والإبداع ضرورة قصوى، وشرطاً حاسماً لاستكمال عملية التجديد الحضاري .

ويقوم منهجها في صياغة العقل الجزائري على أسلوب الإفراغ ثم الملء، أي إفراغ العقل من ركام عصور الانحطاط، ومظاهر الغزو الفكري الحديث، وملئه بالفكر النظيف والتصور الصحيح. وهذا الأسلوب التربوي أصل هام في منهج التربية الإسلامية، حيث كان وسيلة القرآن في تغيير النفوس التي لوثتها الوثنية ومسلك الرسول ﷺ مع أصحابه، حينما كان يفرغهم من التصورات الجاهلية في الإعتقاد والسلوك، ويملؤهم بمبادئ التوحيد .

وقد كان واقع العقل الجزائري - في المرحلة التي باشر فيها العلماء عملهم التجديدي - لا يختلف كثيراً عما كان يعانيه عقل الإنسان الجاهلي على الرغم من اختلاف وجهي المقارنة بينهما. فقد كانت الأمية ضاربة أطنابها في أوساط الشعب، والجهل مخيم بظلامه على العقول ولم تكن هناك أصنام تعبد، بل حلت محلها أضرحة الأولياء التي يتبرك بها العامة، فيتمسحون بأعتابها ويكتحلون بترابها، ويقدمون لها القرابين، ويتوجهون إليها بالأدعية والتوسلات. وكان هناك مشائخ الطرق الصوفية المنحرفة الذين يعتقد فيهم الشعب القدرة على إتيان الخوارق، والاتصال باللّه وتحقيق الآمال وإنجاح الأعمال: «وآل أمر الكثير من هذه الزوايا والطرق إلى إحداث وثنية في الإسلام ما أنزل اللّه بها من سلطان، وأصبح شيخ الطريقة أو المرابط يتصف بأوصاف الربوبية فهو الذي يعطي وهو الذي يمنع، وهو الذي يقبض وهو الذي يبسط وهو منبع كل خير ومصدر كل شر». (32)

وإلى جانب ذلك كله ركام ضخم من الأوهام والخرافات والبدع والضلالات والأساطير التي نزلت بالعقل إلى أسفل الدركات، وحجبت عنه حقائق الوجود، وأعمته عن رؤية واقعة المزري وتمييز عدوه، والوعي بذاته .

وكانت جمعية العلماء تدرك خطورة وأبعاد الخراب الذي أصاب العقل الجزائري في الصميم، بتأثير قرون الإنحطاط الطويلة التي أورثته الشلل، والجمود، والتقليد وملأته بالخرافات والبدع والأساطير التي كانت تزرع في نفسه الخوف من الظواهر الطبيعية، وتصور له الكون غامضاً مجهولاً خاضعاً للصدفة العمياء .

فكان تحرير العقل الجزائري من جديد وتطهيره من هذه السلبيات التي لوثته، وعطلته عن أداء مهمته الحضارية، وإعادة صياغته هدفا أساسيا برز بقوة ووضوح في جهودها التجديدية.

وفي هذا الإطار، دعت وعملت على تشكيل العقول على أساس سليم، بتدريبها على الرؤية الشمولية الكاملة التي تربط الأسباب بالمسببات، والنتائج بالمقدمات، وتملك القدرة على التمييز بين آثار المشكلات وعللها، وتقوى على التفكير المنطقي المنظم، وتؤسس العقيدة على أساس الحجة القوية، والدليل الصحيح، وتعتمد النزعة العقلية في معرفة حقائق الدين ورفض التقليد والجمود والفكر الخرافي الأسطوري، وتنمية الحس الاستدلالي والروح الاستقلالية. وهي الأهداف التي لخصها الشيخ عبد الحميد بن باديس في قوله: «وتكريم عقولنا بتنزيهها عن الأوهام والشكوك والخرافات والضلالات، وربطها على العلوم والمعارف وصحيح الاعتقادات». (33)

وقد التزمت جمعية العلماء بهذا المنهج في التربية الناشئة في المدارس، والشباب في النوادي والمساجد، وحتى عامة الناس، واجتهدت في ترويض فكرهم على تفهم ما يتعلمونه، وطلب الدليل للاقتناع به، حتى تنطلق عقولهم من إسار الجمود، وتتخلص نفوسهم من نزعة التسليم التي طبعت أجيالاً كثيرة قبلهم: «فالغرة اللامعة في جبين هذه النهضة العلمية هي اقتران العلم بدليله فأصبح علماؤنا يعلمون بالدليل ويدعون إلى الدليل ويطالبون بالدليل ويحكمون الدليل ولو في أنفسهم». (34)

ويسجل الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أن تأثير هذه الجهود العملية والنظرية - التي قادتها الجمعية لإعادة صياغة العقل الجزائري - قد تجاوزت الناشئة والطلبة إلى عامة الناس التي درجت على عدم تقبل حكم شرعي قبل معرفة دليله، وفي ذلك يقول: «ومن غرائب تأثير الحق في نفوس المستعدين له أن هذه النزعة الاستدلالية قد تجاوزت آفاق الطلبة المزاولين للعلم إلى الطبقات التي تليهم، فأصبحت نفوسهم نزاعة إلى طلب الدليل في أمور دينهم،

وأصبحت أبصارهم تخشع، وأعناقهم تخضع إذا أقيم لهم دليل من آية قرآنية أو حديث نبوي ... وكم ألقموا المبطلين حجراً وأغصوهم بريقهم حينما يلقون إليهم بباطلهم فيقولون لهم: «وأين الدليل؟. وما أثقلها من كلمة على نفوس ألفت التسليم وقادت الأمة بزمامه». (35)

ونخلص إلى القول أن دعوة جمعية العلماء إلى العودة إلى الأصول والاحتكام إلى الكتاب والسنة قد أسهمت فعلا في إحداث ثورة تحريرية كبرى على مستوى الأفكار والمفاهيم هزت العقلية الجزائرية الحديثة التي أصبحت ترفض التقليد والجمود والتعصب المذهبي وتؤمن بالبرهان والدليل الشرعي طريقا للاقتناع، وهذا في حد ذاته نقلة نوعية هامة في التفكير الجزائري الحديث .

خامساً - الاحتماء بالإسلام في مواجهة الغرب الصليبي:

إن الإسلام هو الملاذ الذي يلجأ إليه المسلمون في محاولاتهم المتكررة للدفاع عن النفس وحفظ كيانهم من الانحلال والذوبان الذي تستهدفه الغارات الغربية المتوالية على الشخصية الإسلامية، في إطار الصراع الحضاري الذي يشهده العصر الحديث .

فقد رأت جمعية العلماء، أن فكرة الرجوع إلى الهوية الإسلامية يشكل محوراً أساسياً لمشروع النهضة الإسلامية كرد فعل على التحدي الحضاري الغربي، وهي الأمل الوحيد الذي يجب أن يتشبث به المسلمون للانعتاق من هذه المغلوبية الحضارية إزاء الغرب اليوم. كما أنها السبيل الأمثل الذي يمكنهم من تفجير أسباب القوة والمناعة الكامنة في هذه الهوية، ليدفعوا غوائل الغزو والمحو بتأصيلها وتدعيمها .

لذلك كان شعارها الذي ناضلت تحت لوائه هو « الإسلام ديننا - العربية لغتنا - الجزائر وطننا ». وعملت على توطيد دعائم هذه الأركان الثلاثة في نفس الجزائري لأنها هي التي تشكل مقومات شخصيته الوطنية، وهويته

الحضارية. وكان الإسلام - بشكل خاص - هو المقوم الجوهري لهذه الشخصية، وهو الحصن المنيع الذي احتمى به الجزائريون أمام موجات الغزو الفكري التي مارستها ضدهم الحضارة الغربية التي دخلت في ركاب الاستعمار الفرنسي.

فقد استطاع الإنسان الجزائري - بتمسكه الشديد بعقيدته الإسلامية - أن يفشل كل المخططات الاستعمارية التي كانت تهدف إلى تنصيره أو إدماجه أو تجنيسه أو تغريبه. وقد تنبهت جمعية العلماء إلى ما يحمله الجزائري في أعماق نفسه من اعتزاز كبير بعقيدة الإسلام، وأدركت أبعاد هذا الشعور النبيل، فعملت بجد على توطيده وتمتينه في النفوس، كما سعت - في الوقت ذاته - لتخليص الشعب من كل ما لحق دينه من انحرافات في الإعتقاد والسلوك، حتى يكون اتصاله بالإسلام صافيا نقيا، ويشير الشيخ محمد البشير الإبراهيمي إلى ذلك في قوله: «إن محل رجاء المصلحين في هذه الأمة هو هذا الخلق العريق الذي ملك على المسلم إحساسه وهو الإعتزاز بإسم الإسلام والإفتخار بالنسبة إليه، والأنفة من الخروج من هذه النسبة والرضى بالهون والدون في سبيل هذه النسبة». (36)

لذلك ظل الإسلام في الجزائر مصدراً هاماً من مصادر التعبئة والتجييش، فهو الذي أيقظ الوعي الديني والسياسي والاجتماعي، وأعاد الاعتبار للهوية الوطنية، وأمد الشعب الجزائري بمخزون الطاقة الهائل الذي ألهب النفوس وهيأها ليوم المواجهة المشهود، حيث كان الموجه الرئيس للثورة الجزائرية التي انطلقت تحت شعار الجهاد في سبيل الله لتحرير أرض الإسلام من رجس الكفرة، وقادها حتى يوم النصر المبين. وقد أكد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أن الإسلام كان - منذ عهود سحيقة - الملجأ الذي يحتمي به الشعب الجزائري كلما نالته نوائب الدهر، أو تكالبت عليه قوى البغي. (37)

ونخلص - بعد هذا - إلى القول بأن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانت تهدف من وراء التأكيد على هذه الأبعاد التي تكتسيها فلسفة العودة إلى الأصول - إلى ضبط العلاقة معها، سواء من حيث الفهم أو التطبيق، ومحاولة

تأسيس منهج سليم لفهم هذه الأصول فهماً صحيحاً، بعيداً عن كل مظاهر الخلل التي اعترتها - والتي أسلفنا الإشارة إليها - وذلك بالإتصال الحي المثمر بها ومحاولة تقديم الإسلام في صفائه وبساطته، ويسره وسماحته بطريقة جديدة - تتجاوز الأساليب الجافة العقيمة الموروثة عن عصور الإنحطاط - وذلك حتى تعيد له سلطانه على الأرواح والنفوس .

وهذه العودة إلى الأصول، لا تعني أبداً الإنغلاق والتقوقع في شرنقة التراث والهروب إلى الماضي السعيد والاستئناس بالموتى - كما قد يتبادر إلى أذهان بعض الناس - بل هي دعوة صريحة إلى استشراف مستقبل زاهر وغد أفضل من خلال الارتكاز على الثوابت الحضارية والانفتاح الواعي على الخبرة الانسانية، والكسب العالمي، والاستفادة منهما وفق ما تقتضيه ضوابط الكتاب والسنة واقتباس كل ما لا يتعارض مع الخصوصية الحضارية للأمة الإسلامية، استجابة لقول الرسول ﷺ : « الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى بها ».

فجمعية العلماء كان يحدوها - في دعوتها هذه - اقتناع تام أن الإسلام لم يدع قط إلى الانغلاق، ومقاطعة منجزات الحضارة إذا كان فيها ما ينفع الإنسان، بل ترك للمسلم حرية المبادرة، مع ضرورة الإرتباط بالأصول والجذور، والتي تضمن له التماسك الحضاري، وتحول بينه وبين الإنجراف مع التيارات المعادية والذوبان فيها .

الهوامش والمصادر والمراجع

1- عبد الحميد بن باديس، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية الجزائر، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة - الجزائر، ط 1 - 1991، ج5 ، ص 73 .

2 - عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، جمع وترتيب وإعداد وتعليق : د/ محمد توفيق شاهين ومحمد الصالح رمضان، دار الفكر، ط3 - 1979، ص 285 .

3 - هو نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بين سنوات (1931-1940) ثم رئيسها (1940-1956). وهو من أقطاب الجمعية بعد عبد الحميد بن باديس، وأحد القيادات البارزة في الجزائر. لذلك سنقتصر في هذا الموضوع على الاستشهاد بنصوصه ونصوص عبد الحميد بن باديس باعتبارهما القطبين الأساسيين لهذه الجمعية .

4 - محمد الطاهر فضلاء، دعائم النهضة الوطنية الجزائرية، دار البعث، قسنطينة - الجزائر، ط1 - 1984، ص 44 .

5 - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت، ص 342 .

6 - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1 - 1978، ج1 ، ص 129 .

7 - عبد الحميد بن باديس، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ج5 ، ص 94 .

8 - سورة النساء، الآية : 59 .

9 - أبو داوود سليمان بن الأشعث السجستاني، صحيح سنن المصطفى، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، د.ت، ج2، ص 116 .

10 - محمد فتحي الدريني، وآخرون، الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطة، ط1 - 1991، ص 69 - 70 .

11 - محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ج 4، ص 78 .

12 - الشهاب، عدد خاص، جوان - جويلية 1938، ج 4-5، مج 14، ص 231 .

13 - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق - سوريا، د.ت، ص 127 .
14 - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، دار الفكر، دمشق - سوريا، د.ت، ص 69 .
15 - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص231 .
16 - المصدر نفسه، ج 1، ص 231 .
17 - المصدر نفسه، ج 4، ص 153 .
18 - سورة الفرقان، الآية : 30 .
19 - عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس، ص 282-283 .
20 - محمد المبارك، المجتمع الإسلامي المعاصر، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط 5 - 1980، ص 76 .
21 - طه جابر العلواني، أدب الإختلاف في الإسلام، سلسلة كتاب الأمة، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر، جمادى الأولى ط 1 - 1405هـ ، ص 147 .
22 - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص96 .
23 - المصدر نفسه، ج 1، ص 344 .
24 - محمد عمارة وآخرون، إشكاليات الفكر الإسلامي المعاصر، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطة ط1 - 1991، ص 212 .
25 - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي،ج 1، ص74-75.
26 - عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس، ص 159 .
27 - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص77.
28 - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 329 .
29 - جريدة البصائر، ع 95، السنة الثالثة / 14 جانفي 1938 .
30 - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 154 .
31 - المصدر نفسه، ص 157-158 .
32 - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص376 .
33 - عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس، ص 206 .
34 - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص74 .
35 - المصدر نفسه، ج 1، ص 75 .
36 - المصدر نفسه، ج 1، ص 38 .
37 - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 21 .